ملامح من شاعرية الجواهري

د. سحاب الاسدي
الجامعة الاسلامية

المقدمة :

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الصادق الامين وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحبه الغر الميامين وبعد :

فان شعرنا العربي – على تنوع عصوره – يحفل برموز مميزة من شعرائه البارعين ، ممن تألقت مواهبهم الشعرية ، ابداعا رائعا ومهارة فذة واقتدارا مشهودا ، لتعلن حضورا فاعلا لاصحابها في ميدان قول الشعر الذي كثر رواده من الشعراء المزدحمين في مربده ، وهم بين من نال نصيبه من التمكن في فن القول ، ومن اجاد وابدع ، فكان بارعا في التعبير عن تجربته الشعرية ، ليشق طريقه في عالم الإبداع والتألق ، ويكون فارسا من فرسان القصيدة ومن شعرائها الفحول ، ابتداء من امرئ القيس وزهير والنابغة ، ومرورا بجرير والفرزدق وذي الرمة وابي تمام والبحتري وابي العلاء والمتنبي والجواهري ، الجواهري الذي تربطه بالمتنبي علاقة الإبداع والتألق والنبوغ ، وما بينهما من مآثر الإباء والكبرياء ، بل ما بين الاثنين من صلة الجوار و تقاسم الهم والشقاء ، ألم يخاطب الجواهري صاحبه المتنبي، قائلا:

أنا ابن كوفتك الحمراء لي طنبُ ... بها ، وان طاح من اركانه عمدُ
جوار كوخك لا ماء ولا شجرُ ... ولصق روحك لا مال ، ولا صفدُ
ولا شكاة ايشكو السيف منجردا ؟ ... لا يخلق السيف الا وهو منجردُ
فكن ابا الطيب الجبار لي مددا ... ولي بما صفت من جبارةٍ مددُ
يا شاغل الدهر اجيالا واحقبة ... ومتعب الناس من ذموا ومن حمدوا

فالتقى هذا بذاك ، عبر مسار شعري ، مترع ببراعة الاداء ومهارة الفن مع قدرة فائقة على التحكم بمفردات اللغة وتنوع استخدامها باداء متقن واسلوب متين يفصح عن موهبة شعرية ناضجة ، امتلك صاحبها مقومات الإبداع والاجادة ، ليضع اسمه مع زمرة

الشعراء الكبار ويستحق ان يطلق عليه شاعر العرب الاكبر ، الشاعر المبدع محمد مهدي الجواهري ، الذي جاء هذا البحث محاولة متواضعة للتجوال في عوالم ابداعه الشعري ، ورصد بعض معالم شاعريته الفذة ، تلك الشاعرية التي افصحت عن نفسها بوقت مبكر ، وكان اول تعرفي الى براعة صاحبها ، حين وقعت عيناي على ابيات لاحدى روائعه التي ابدعها في غربته ، وكان مطلعها :

سهرت وطال شوقي للعراق وهل يدنو بعيد باشتياقي

وكنت ما زلت حين يدور حديث حول مواجهة الصعاب وقهر الملمات اتمثل قول الجواهري فيها :

ولي نفسان طائرة شعاعا واخرى تستهين بما تلاقي
اقول لها وقد خدرت ولانت اعيقي من يريدك ان تعاقي
وشدي من حنانك للرزايا وسوقيه لهن ولا تساقي
فلا من خاضها كرها بناج ولا من خافها جبنا بباقي

وتتعمق لدي مشاعر الاعجاب بشاعرية الجواهري ، فاطالع بعض قصائده فاذا بروائعه (هاشم الوتري) و (يابن دجلة) و (يابن الفراتين) تشدني الى الابحار في عوالم ابداعه ، واجدا فيه موضوعا يستحق ان اجهد نفسي لابلغ فيه بعض ما اطمح اليه ، مما يتصل بشاعرية الجواهري وابداعه الفني ببحث عنوانه (ملامح من شاعرية الجواهري) مع الاشارة الى ان هذا البحث ليس بمقدوره الالمام بكل جوانب شاعرية الجواهري فهذا مركب صعب المنال وامر عسير ، مهما كان الاجتهاد ، فالبحث بازاء كم غزير من شعر ، لم يكن غثه الا نتفا هنا وهناك ، فعذرا ان منحت لنفسي الحق في قطف وردة من هنا واخرى من هناك ليقوم البحث على اختيارات متنوعة لنصوص شعرية ، توخيت من خلالها تركيز القول في الكشف عن العناصر الاساسية التي تمثلت فيها شاعرية الجواهري ، مستعينا بما يجسدها من الوان الاداء اللغوي المتقن وتنوع الصور الشعرية المعبرة .

المبحث الاول

نظراته في شعره

آثرت ان أبدأ البحث في رؤية الجواهري لشعره ، متلمسا – ما امكن – بعض ابعاد الصورة التي رسمها الشاعر لشعره ، محاولا الوقوف عند تلك الاشارات الشعرية التي كان الجواهري يفصح فيها عن جوانب مهمة من نهجه في نظم قصائده ، وروافد بنائها ، وكيف كان يرى شعره وسط اجواء يسودها مرذول القول ، مدلا في ذلك على ما للشعر من رسالة في الحياة ، وخلال استعراض تلك الابيات الشعرية التي تتضمن ذلك كله ، ساوجز القول في بعض جوانب لغة الشاعر وصوره اينما وجدت ضرورة في الاشارة اليهما .

كان الجواهري – خلال حضوره مجالس الادب والشعر مصاحبا لابيه – مستمعا جيدا ، كله اذن صاغية لما يدور في تلك المجالس من روائع المتنبي وابي تمام وآخرين من الفحول ، فكانت تلك الروائع ترن في سمعه في المجالس ، وتتكحل بها عيناه في البيت ، فولع منذ صغره – كما يقول – بجمع شوارد الادباء واوابد الشعراء يتتبع آثارهم النفيسة (١) . ومن هنا راح يدلنا على تمثله لروح الفحول من الشعراء واستحضاره لروائع فنهم في لحظة نظمه لشعره ، ومن ذلك قوله :

من اللاء غذاها (جرير) بروحه ولاءم شطريها نسيج الفرزدق

شرين بماء الرافدين وطارحت باسجاعها سجع الحمام المطوق (٢)

(يؤكد الجواهري نماذجه من الشعراء القدامى ، مقلدا قصائدهم او متخذا مواقفهم ، فنقرأ ونلمس في ديوانه الاول بصمات المتنبي وابي تمام ، والبحتري والشريف الرضي والفرزدق والمعري وبشار ... وغيرهم) (٣) بل هو يعدهم اساتذته ، ويرى نفسه قريبا منهم وان باعد بينه وبينهم الزمان ، فلنستمع اليه وهو يبثهم شكواه قائلا :

اساتذتي اهل الشعور الذين همُ مناري في تدريبتي وعمادي

اروني انبلاجا في حياتي فانني سئمت حياةً جللت بسواد
لئن جئت عن ازمانكم متاخرا فاني قريب منكم بفؤاد
وعندي منكم كل يوم مجالسٌ ترف بها ارواحكم ونوادي
معي روح (بشار) وحسبي بروحه تقربني من حكمة وسداد
اساتذتي لا توحدوني فانني بواد وكل الشاعرين بوادِ
ولا تعجبوا ان القوافي حزينة فكل بلادي في ثياب حداد
وما الشعر الا صفحة من شقائها وما انا الا صورة لبلادي (٤)

ان موروث القول هو المصدر الرئيسي الذي اعتمد عليه الجواهري في صقل شاعريته وتهذيب لسانه ، واثراء لغته ، وهو نفسه يؤكد اهمية الاعتماد على التراث ، فنراه يقرر ذلك بقوله (ان اديبا لم يحفظ البحتري وابا نؤاس وابن الرومي والمعري وابا تمام والمتنبي ، او لم يدرس الجاحظ والاخطل وابن قتيبة وابن الاثير وابا الفرج ودعبلاً والقرآن ونهج البلاغة لا يمكن ان يكون شاعرا ولا كاتبا ابدا) . (٥) وهنا يمكن ان نستشف من قول الجواهري ان من يريد ان يخلق لنفسه مجداً شعرياً ويعد شاعراً مبرزاً في عصره لا بد له من ان يهرع الى دواوين الشعراء الفحول ومؤلفات الكتاب المجيدين فيديم النظر فيها لصقل موهبته وشحذ قريحته ليقف على ارضية صلبة ، يستطيع من خلالها الانطلاق بموهبته الى عالم الابداع الشعري الفسيح وهذا مما انتهجه الجواهري والتزم به فكان له ما اراد .

وحين نطوف مع الجواهري لتتبع شوارد قوافيه ، وكيف يقتنص منها ما يريد يوقفنا صوته وهو يدعو المقتفين اثره محاولين – دون جدوى – اللحاق به ، فما بينهم وبينه بون شاسع ، ولذلك هو يدعوهم الى ان يأخذوا عنه درسا في فن القول ، لا ان يحاولوا مجاراته والاقتراب منه ، فيقول :

ايها المقتفون شأوي هلموا وخذوا عني البلاغة درساً
انا لا ادعي النبوة الا انني ارجع المقاويل خرسا
انا في الشعر فارس ان اغالب يكن الطبع لي مجنا وترسا (٦)

اذا كان الفارس في ميدان المعركة ، يتدرع بسيفه وترسه ورمحه لمنازلة خصمه ، والتمكن منه ، فان الجواهري يرى نفسه في ميدانه الاثير ، ميدان الشعر متسلحا بادوات ابداعه ، فهو فارس في ميدان الشعر ، متسلح بادوات المنازلة ، فهو شاعر مطبوع لا يستعصي عليه القول ، ولهذا كان في ميدان التباري يقول الشعر واثقا من قدرته على المطاولة وبذ الخصوم ، بل اسكاتهم ، فهو فارس الكلمة ، وما يمتلكه من طبع جبل على بليغ القول ، هو درعه الواقي الذي يتحصن به ضد خصومه فكانت له الغلبة على الرغم من صغر سنه ، فقوافيه طوع بنانه ، يختار منها ما شاء ، اذ يقول :

واذا ما ارتمت على القوافي نلت مختارها وعفت الاخسا

ان اكن اصغر المجيدين سنا فانا اكبر المجيدين نفسا (٧)

ويدلنا الجواهري على انه مبتلي بكثرة حساده ، الذين كانوا ينكرون عليه شاعريته ويحاولون التقليل من شأنه ، فما عليه والحال هذه ، الا ان يفهمهم بالدليل من هو فراح يقول :

كم حاسد لم يجرب مقولي سفهاً حتى دسست اليه السم في الرطب

طعنته بالقوافي فانثنى فرقا يشكو الى الله وقع المقول الذرب (٨)

ومرة اخرى ينقلنا الجواهري الى ميدان المنازلة ، فاذا به يتخذ من لسانه رمحا يصوبه نحو من يحاول النيل منه ، فيبتدره بطعنة نجلاء ينثني من جرائها فرقا يشكو الى الله ما الم به ، فالشاعر في استعماله للمفردة (طعنته) جعلنا بازاء معنى جديد لها غير الذي نعرفه ، فالتثني فرقا بفعل هذه الطعنة ، يوحي وكأن المطعون قد جرح جرحا بليغا ، مع ان اداة الطعن هنا – القافية – غير جارحة في حقيقتها ، ولكن طعنتها اشد ايلاما واقسى وقعا في النفس .

ويحاول الحساد تضييق الخناق على الشاعر ، علهم يفلحون في اسكات صوته ومنع انطلاقته ، لكنهم اضعف من ان ينالوا منه ، وما عليهم الا الاقرار بحقيقته والاعتراف بمنزلته وفي هذا راح الشاعر يخاطبهم ، بل يعنفهم ويصرخ بهم قائلا :

امثلي تمنعون عن القوافي ومثلي تحبسون عن البيان ؟

سيمنع من طلاقته لساني متى منع الظهور الفرقدان

دعوه انه بالرغم منكم جواد سابق ملء العنان (٩)

ولو كانت محاصرة الشاعر مقتصرة على حساده حسب ، لهان الامر ، لكنه مع ابتلائه بالحساد مبتلي بانكاره اصحابه له ، وتخلي البلاد عنه ، وهو الذي شاع ذكره في المحافل والنوادي :

اينكر إلفتي حتى اصحابي وتنبو الارضبي حتى بلادي

ومن عجب تضيعني وذكري تردده المحافل والنوادي

ايدري من يرددها حسانا خلاء من زحاف او سناد

تناقلها الرواة بكل فج وتهديها الحواضر للبوادي

بان الشعر تشرب من عيوني قوافيه وتأكل من فؤادي (١٠)

ان المفردتين (تشرب وتأكل) من المفردات الشائعة الاستعمال في احاديث الناس حد الابتذال ، غير ان الشاعر – هنا – وفق في استعمالهما ، حين وضعنا امام صورة غير مألوفة للمعنى المتعارف عليه ، فاذا بقوافي شعره تشرب من عيونه وتأكل من فؤاده ، ولنا ان نتساءل : تشرب ماذا ؟ وتأكل ماذا ؟ انه اراد تجسيد معاناته في خلق القصيدة ، فالجواهري يرى – كما رأى الاقدمون – ان التجربة والمراس والدربة والطبع كلها مجتمعة كفيلة بخلق الاديب المتمكن من فنه ، والممتلك لادوات تعبيره ، فهو يقول : (ان الكلمة النافذة الصالحة الباقية هي تجربة قاسية ومراس متمكن ، ومعاناة شاقة وادراك عميق وحس مرهف ، وهو الى ذلك كله قدرة على التحويل والتطوير ، وعلى المزاج ، وعلى مماشاة المزيج بحيث يبدو صرفا خالصا لانها قدرة على الخلق والابداع ، هذا هو سر الكلمة ، ولنقل هذا هو كلمة السر في ان يكون الفرد منا اديبا او لا يكون) (١١)، والجواهري فيما ذهب اليه يدلل على ان (معاناته مع المفردة العربية معاناة غريبة تمثل ظاهرة متميزة في عصرنا هذا) (١٢)،ولنقف مع الشاعر وهو يخبرنا عن تلك الاوقات التي يرحل في اثنائها الى عالمه الشعري ، لنتعرف على معاناته في رحلة

ابداعه التي لا احد سواه يعلم اسرارها ، ويعرف مسالكها ويتحسس متاعبها ، فاذا ما تحدث بها ، فلا شك في صدق حديثه ، فهو يقول :

يا دجلة الخير : كم معنى مزجت له دمي بلحمي في احلى المواعين
الفيته فرط ما الوى اللواة له يشكو الامرين من عسف ومن هون
سهرت ليل (اخي ذبيان) احضنه حضن الرواضع بين العت واللين
اعيد من خلقه نحتا وخضخضة والنجم يعجب من تلك التمارين (١٣)

في اللحظة التي يحاول فيها الشاعر ولوج عالمه الشعري ، تقفز امام ناظره ، وتمر بخاطره تلك الصور المبتذلة والاقوال المزيفة التي ينطق بها المتطفلون على الشعر والمدعون الانتساب اليه ، وهو براء منهم ، وعند ذلك يجد الشاعر نفسه بازاء مهمة مقدسة ، يحس بثقل وطأتها ، وما عليه الا النهوض بها اكراما لعيون الشعر ، الذي عرف قدره ، لكي يرقي به الى الصورة التي يستحق ان يكون عليها ، وذلك لا يتم الا بتوقد الذهن وتوهج الفكر وتألق الخيال ، وهذه كلها مخاض عسير ، ولهذا مزج الشاعر – للظفر بها – دمه بلحمه وسهر ليله الطويل يرقبه النجم ، وهو يروض قوافيه ليقتنص منها شواردها التي يمزق ضجيجها الصمت فترتج لها المحافل ، ومن هنا كان الجواهري يتوعد قوافيه بالويل والثبور ، فيقول :

لامّ القوافي الويل ان لم يقم بها ضجيج ولم ترتج منها المحافل
ساقذف حر القول غير مخاتل ولا بد ان يبدو فيجزى المخاتل (١٤)

ان تلك الاشارات الشعرية التي كان الجواهري يبثها بين الحين والحين ، يصور من خلالها ضغط الملمات التي كانت تلاحقه ، وثقل الخطوب التي ابتلي بها ، فبدت كانها قد اوهنت منه القوى ، وفتت في عضده فاذا بالنفس المتعالية الطموح ، المليئة بالعنفوان والساعية الى المجد تستغيث بمن حولها ، وتستنجد بمن ينتصف لها ويؤازرها ، انعد هذه اللواعج والاهات دليل ضعف وخنوع ، ام انها تنهدات قلب تشابكت عليه سهام الغدر والضغينة والحسد ؟ ويبدو انها لا هذه ولا تلك ، انما هي حجة اراد الشاعر القاءها على الاخرين ، لانه كان وحيدا يذب عن قيم الحق والخير والفضيلة ، فليتقدم من هو

كفوء لها ، ليقول كلمة حق وعدل ، فليلتحم صوته مع صوت الشاعر ، ولا نريد الاسترسال ، فلنستمع

الى صرخة الجواهري :

دعا الموت فاستحلت لديه سرائره اخو مورد ضاقت عليه مصادره

عراه سكوت فاسترابت عداته وما هو الا شاعر كل خاطره

وحيدا يحامي عن مبادئ جمة اما في البريا منصف فيؤازره (١٥)

ومرة اخرى تبرز معاناة الجواهري مع ما يدور في ساحة الادب والشعر ، فيقدم لنا حوارا مع نفسه ، معلنا رفضه واستهجانه لمرذول القول ، الذي ملأ الساحة الادبية ، ينعب به من ينعب من الطارئين على فن الشعر ، وهو قادر على ان يصدح به ، فعليه ان يمزق صمته ويقتحم المسالك ، ليعيد الى الشعر بريقه وبهاءه ، يقول الجواهري :

وقائلة ترى الاداب سفت وقد غطى النعاب على الصداح

وما نفع السكوت وقد اضيعت حقوق ذوي الجدارة بالصياح

تقدم للقوافي واقتحمها فقد يرجى التقدم بالكفاح

اقول لها : دعي زندي فاني اخاف عليك بادرة اقتداحي

وكل حقيقةٍ ستبين يوماً وكلُّ تصنعٍ فالى افتضاحي (١٦)

في قول الشاعر (تقدم للقوافي واقتحمها) نحس ما وراء هذه الالفاظ من دلالات وايحاءات ، اذ تتجسد في لفظتي (تقدم واقتحم) صورة الانفعال التي كان الشاعر يعيشها ، وحالة الاضطراب التي تخيم على نفسه ، والقلق الذي يقض مضجعه لما يرى وما يسمع ، فلا بد اذن من التمرد والثبات على الحق بفعل اقتحامي شجاع فيه ما فيه من عظائم الامور :

اقول لها : دعي زندي فاني اخاف عليك بادرة اقتداحي

ويكث الحساد ممن اوغرت صدورهم تحاملا وحقدا على الشاعر ، لا لشئ سوى لكون موهبته الفنية وتألق نبوغه اصاب منهم مقتلا حين كشف عن ضآلتهم وفندَّ حقيقة ما يدّعون من قول الشعر :

فجئت بها مبغى اديب مقدر ومنعى حسود موغر الصدر اخرق
وجاءوا بمرذول القوافي كأنما (مركبة ابياتها فوق زئبـق)
وحسبك من خمسٍ وعشرين حجة بها الشيخ ذو السبعين من خنقٍ شقي
يقول وقد غطى شعاعي بصيصه ترفق وهل لي طاقة بالترفق
اذا ما تبارى والقوافي بحلبة صرخت به ان كنت شعري فاسبق (١٧)

فهل لبصيص الضوء من عين تبصره اذا ما توهج امامها شعاعه !؟

ويرى الدكتور ابراهيم السامرائي ان الجواهري (اراد ان يرد على المتصدين لقيود عمود الشعر ليقول لهم : ان صاحب الفن والموهوب من الادباء يستطيع ان يحوز على الابداع وان يكون له كل ما يريد وهو محتفظ بالشكل المعروف) (١٨) فثقة الجواهري بقدراته الابداعية ، وامتلاكه ناصية القول في لغة شعره ، جعلاه ينأى جانبا عن ذلك الجدل الذي كان دائرا بشأن الشكل والمضمون (فشق طريقه غير آبه بهذا الجدل القديم ، فيعجب به خلق كثير ، ويكون في عداد الخالدين ... وقد كان للجواهري كل هذا بعد ان اجهد نفسه واتعبها في التمرس بالكلمة المفردة والاستمتاع بسحرها ، ولها في ذهنه وروحه مكان خاص وطلسم خاص يقف منه موقف الانفعال والاعجاب فهو يعرف الكلمة وتعرفه وينطلق بها فيصبح منها عنصرا مخالطا كالماء والخمرة ، كالدم المطابق منقولا الى الدم ، وكلقاح الشجرة محمولا الى شجرة اخرى) (١٩) .

واذ تتوالى الملمات ويضيق الشاعر ذرعا بما حوله ، تتفجر الهمم بركان غضب فتحين الساعة التي يقتص بها الشعر من اعدائه ، اعداء الحق والحرية والفضيلة فينتفض صوت الشاعر هادرا قويا ، يقض مضاجع الخائرين ، ويعلن حضور الارادة الفاعلة ، الملتزمة بقيم الحق والخير والفضيلة والعدل ، المصممة على الثبات لقهر المحن والصعاب ، لنترك هذا الهدير الجميل ، يعبر عن صدق الانفعال وسمو الابداع :

يتبجحون بان موجا طاغيا سدوا عليه منافذا ومساربا
كذبوا فملء فم الزمان قصائدي ابدا تجوب مشارقا ومغاربا
تستل من اظفارهم وتحط من اقدارهم ، وتثل مجدا كاذبا

انا حتفهم الج البيوت عليهم اغري الوليد بشتمهم والحاجبا
خسئوا : فلم تزل الرجولة حرة تأبى لها غير الامائل خاطبا
والامثلون هم السواد فديتهم بالارذلين من الشراة مناصبا (٢٠)

ان هذا الابيات – فضلا عن احكام سبكها ومتانة نسجها – تكاد مفرداتها وتراكيبها ، تنطق كي تؤازر الشاعر في هديره ، فالموج الطاغي يتعالى دوي صاخب بين طياته ، وفم الزمان يضج باصوات المنشدين وقصائد الشاعر (تستل من اظفارهم وتحط من اقدراهم) ، فماذا يفعل هذا التقطيع النغمي الممتع انه يمنح الصورة حركة وحياة ، فتشع المفردات بايحاءات ودلالات نجد صداها في نفس الشاعر ونفس المتلقي لشعره على السواء (انا حتفهم) فاي دلالة تجسده هذه (الانا) واي عنفوان تستظل بظله فتكون حتفا لمن لا يستحقون الحياة ، ثم بماذا توحي المفردة (خسئوا) انها محملة بفيض من دلالات ومعان قصد اليها الشاعر فمنحها توترا حركيا ، جعل ايقاع رنينها ثقيلا على سمع (الاراذل) الذين وسمهم – قبل ذلك – بالكذب فكان وقع قوله (كذبوا ....) قويا مؤثرا ، حين اتبعه بقوله : (خسئوا ...) وتلك (الانا) يتفجر غضبها ويشمخ عنفوانها ، حين تتشفى باحتقار الطغاة بما هو استحقاقهم في الحياة ، فاراد الشاعر ان يطمئن ممدوحه الذي كان كثير السؤال عنه ، بانه كما يراه بطول قامته وعظيم فعله ، والطغاة كما ينبغي ان يكونوا نثار تراب تأنف القدم ان تطأه ، كما يقول الجواهري :

اناذا امامك ماثلا متجبرا أطأ الطغاة بشسع نعلي عازبا (٢١)

وحقا ان بائية الجواهري (هاشم الوتري صواعق حارقة من اللغة والنغم والصور تنزل على حكام العراق الذين يدفعون الشاعر الى الجوع والتشرد) (٢٢) .

ويؤكد الشاعر ان للشعر رسالة مقدسة في نصرة الحق والتصدي للمعتدي فالناس يظلون مترقبين صوته ، آملين منه ما يستجيب لتطلعاتهم ويدافع عن قضاياهم :

وهل انا الا شاعر يرتجونه لنصرة حق او للطمة معتدي
وعندي لسان لم يخني بمحفل كما سيف عمرو لم يخنه بمشهد (٢٣)

ويتحدث الجواهري عن تلك العلاقة الحميمة التي تربطه بالشعب ، وقد كان لسان صدق ينطق بما يختلج في قلوب الناس ، ومن هنا كان الناس يحتفظون له بود صادق ، ويبادلونه مشاعر فياضة بالحب والاعجاب ، لانهم وجدوا في شعره تعبيرا صادقا عن عواطفهم واحساساتهم وخلجات انفسهم ، وفي ذلك يقول :

وانا لسان الشعب كل بلية تأتيه احمل ثقلها واصور
واذا تفطر من فؤادي جانب حدبت علي قلوبه تتفطر
اني لاحسب حين اخبر ذمتي ان البلاد الى ضميري تنظر (٢٤)

لقد وطن الشاعر نفسه على مقارعة الخطوب ومواجهة الملمات ، وكان يدري انها تزدحم من حوله ، فلم يترك نفسه تؤخذ على حين غره ، بل اعد لكل امر عدته ، لانه كان مدركا طبيعة الاهوال التي لابد من مجابهتها ، فاما قهرها والتغلب عليها او الهلاك بها ، ولكن قد يتبادر تساؤل عن نوع السلاح الذي ذخره الشاعر لمثل تلك المجابهة ، اذا ما اصبح لزاما عليه خوض غمارها انه سلاح عرف الشاعر قيمته ومضاءه ، وخبر قوته وامتزج في اعماقه ، فالشاعر وسلاحه صنوان متلازمان يتوقى كل منهما بصاحبه في اية كريهة قد تحل ، لندع الجواهري يحدثنا عن ذخيرته :

ذخرت لاحداث الزمان يراعا يجيد نضالا دونها وقراعا
واعددته للطارئات ذخيرة يزيح عن الشر الكمين قناعا
والفيتني في كل خطب ينوبه ادافع عنه ما استطعت دفاعا
وما في يدي الا فؤادي انرته ليلقي على سود الخطوب شعاعا
وكلفت نفسي ان تحقق سؤلها سراعا او الموت الزؤام سراعا
وما ذاك الا ان قلبا حملته على الهول يأبى ان يطير شعاعا
وهل انا الا كالمؤدي رسالة رأى كتمها حيفا بها فاذاعا (٢٥)

وتلك ابيات تغني بنفسها عن أي تعليق ، فهي ناطقة بصدق المشاعر ورهافة الحس وسمو العاطفة .

المبحث الثاني

لغته الشعرية

ان اللغة عنصر اساس في الاسلوب الادبي ، وهي الى جانب الفكرة والعاطفة والخيال عناصر لا يمكن للاسلوب الادبي الاستغناء عن أي منها في أي فن من فنون القول ، واللغة بالنسبة الى الشعر هي اداته المهمة التي يتخذ منها الشاعر وعاء لافكاره وصوره ومعانيه ، وهذا ما يحتم عليه انه يوليها عناية خاصة واهتماما استثنائيا ليخرجها بابهى صورة تكون فيها اكثر اشراقا وادق تصويرا وابلغ تعبيرا ، ومن هنا نجد الشاعر ينتقي من الالفاظ اجودها واجملها مستعيرا لافكاره ومعانيه وصوره الشعرية اللغة اللائقة بها ، وهذا ما عرفناه عن كثير من شعراء العربية القدامى ، فهل تأثر الجواهري باسلافه في هذا الجانب وانتهج في اختيار لغته ؟ هذا ما سنحاول الوقوف عنده ونحن نستعرض بعض اشعاره التي قد تدلنا على ما تتسم به لغته ، وحين نتحدث عن لغة الشاعر ، فحديثنا نحاول من خلاله ان نقف عند مفردات شعره التي انتقاها واقام بينها نظاما معينا تؤدي فيه المعنى الذي قصده الشاعر ، وهو ليس المعنى الظاهر الذي نعرفه عن تلك المفردات ، وانما المعنى الذي ابتدعه خيال الشاعر ، مستفيدا من روح العلاقة التي اجاد بعثها بين مفرداته ، لانتاج صورة شعرية تألقت بملامح لمساته الابداعية وبراعته في التمكن من لغته ، لنأخذ قول الشاعر :

كان بلاد الحر سجن لمجرم وما جرمه الا العلى والترفع (٢٦)

لقد اورد الشاعر في قوله مفردتي (الحر ، سجن) ومعروف ما بينهما من تضاد وتنافر ، وفرق في الامتداد الزمني والمكاني ، فالحر حر لا تتقيد حريته بمكان او زمان ، اما السجين فحريته مقيدة بمكان وزمان معينين ، غير ان الشاعر هنا قصد اقامة التوازن بين طرفي المعادلة ، فاذا بالبلاد على امتدادها سجن كبير ، واذا ما تحولت بلاد الحر الى سجن لم يبق للحرية من معنى ، وما اقصى ان يحسب الانسان حرا ، وهو مكبل بقيود القهر والظلم ، لا لذنب اقترفه سوى سعيه المشروع نحو العلى والمجد ، فالجواهري اراد التدليل على ان مثل هذا الطموح دونه مصاعب وتضحيات ، ويقول في مكان آخر من القصيدة نفسها :

ستحملني عن مسكن الذل عزمة بوطأتها السبع السوائر تخشع (٢٧)

فنلاحظ كيف تصرف الشاعر بمفردات لغته ، فاستعار لها دلالات اخرى ، فجعل للذل مسكنا يأوي اليه من هانت عليه نفسه ، فينأى الشاعر عنه ، بما يمتلك من عزيمة قوية تجعل وقع اقدامه شديدة الوطء تخشع لها السبع السوائر .

ان الشاعر وهو يديم النظر في الفاظ شعره ، ويعاود مراجعتها والتدقيق فيها فيبدل هذه اللفظة بتلك ، ويضيف الى هذه ، ويحذف من تلك ، انما يحاول ان يصل باختياره الى الالفاظ التي يجدها قادرة على ان تفعل فعلها المؤثر في نفس المتلقي ، من خلال امتداد تأثيراتها في اعماقه ، الى حد مشاركته له في انفعالاته وفي ابعاد تجربته ، لنستمع الى الجواهري ، وهو يقول :

دع الطوارق كالاتوف تحتدم وخلها كحبيك النسيج تلتحم
وخذ مكانك منها غير مكترث دهدى بك الموج او علت بك القمم
كفاك والخطب فخرا ان تصارعه ان المصارع انى صار محترم
خض الكوارث لا نكسا ولا جزعا واترك الى الغيب ما يجري به القلم
لو كان يضمن نصر قبل موعده لكان ارخص ما في الانفس الهمم
ان الشدائد تستصفى النفوس بها مثل الحظوظ على اصحابها قسم
يلقين ظلا على وجه فيلتطم ويزدحمن على وجه ويبتسم (٢٨)

هذه قطعة من قصيدة التحم نسيج ابياتها ، بما افرغ فيها الشاعر من مفردات وتراكيب ، صيغت باسلوب خطابي حواري ممتع ، اعتمد فيه الشاعر ظاهرة التجريد ، مستعينا بفعل الامر الذي كرره ست مرات ، ليتناسب مع طبيعة الحدث الذي اشار اليه ، فاحتدام الطوارق واقتحام اتونها ، ومقارعة الخطوب ، ومنازلة الكوارث ، تستلزم ما تستلزم من عزم وارادة واقتدار ، وهذه لا يتجلى فعلها الا في ميدان المنازلة ، وهذا ما أكده الجواهري ، وهو يجسد معانيه بلغة جزلة واسلوب متين ، تناوبت فيه المفردات على اداء ادوارها بيسر وسهولة ووضوح ، ولكن لنتوقف قليلا عند قوله :

يلقين ظلا على وجه فيلتطم ويزدحمن على وجه ويبتسم

فالشاعر هنا يشير الى الشدائد التي ذكرها قبل هذا البيت ، فيراها بانها لا يبرز منها امام شخص سوى بعض اثارها ، فيلتطم وجهه ، وليس لنا ان نفسر لفظة (يلتطم) ، فالشاعر احسن استعمالها – مع كونها شائعة كثيرة التداول – لانه اوجز في دلالتها كل المعاني التي اراد التعبير عنها ، وهو يصور ذلك الوجه الذي القت عليه الشدائد ظلالها ، ولكن ماذا نجد في نقيض تلك الصورة ، فالشدائد (يزدحمن على وجه ويبتسم) وليس بنا حاجة الى التعليق على هذا الفرق الكبير بين ظل الشدائد وزحمتها ، فظلها على ذلك الوجه جعله يلتطم وهذا الوجه يبتسم مع كثرتها عليه ، ويلاحظ ان الجواهري لم يقل (فيبتسم) كما قال (فيلتطم) ، لانه وجد ان (الفاء) تؤدي معنى التعاقب ، فمجرد ان القت الشدائد ظلها التطم الوجه الاول وتكدرت احوال صاحبه ، ولكنها مع اشتداد زحمتها على الوجه الثاني ظل مبتسما غير آبه بها ، فقال (ويبتسم) فالواو – وهي هنا للحال – افادت استمرار الحدث وامتداد زمنه .

وتقوم بين الالفاظ في سياق التراكيب علاقات من نوع ما ، يحاول الشاعر ابرازها ساعيا الى منحها طاقة ايحائية ، تنتج عنها اشعاعات وظلال (ونحن نعلم ان المفردات لا قيمة لها وحدها ، وانما تأتي اهميتها حين يخلق الشاعر بينها مجموعة من العلاقات التي تكون الصور من خلال عملية الحدس والتخيل وهذا ما افاد منه الجواهري) (٢٩) ومن ذلك قوله :

مجدا على مجد فتلك طماحة يمشي عليها المجد نحوك قاصدا
كذبوا فان الاكرمين طرائد للمكرمات وان حسبن طرائدا
يمشي الكريم مع التكرم توأما صنو يسدد خطو صنو عائدا
حتى اذا بلغ الجميل أشده سار الكريم الى المكارم فاردا (٣٠)

وتلك – لعمري – لوحة فنية تجانست الوانها وتلاحمت خطوطها ، فكانت نسيجا رائعا قدم لنا الشاعر فيها صورة المجد والكرم ، لا كما نعرفها وندرك ابعادها فلم يكن المجد والكرم يبحثان عمن يسعى نحوهما ، اذ تفنن الشاعر في تطويع مفرداته ، فاذا بالمجد هو الذي يسعى نحو قاصده ، واذا بالمكرمات هي التي تلاحق الاكرمين ، بل

تطاردهم على قول الجواهري ، وتمتزج صورة الكريم وكرمه فتستحيل نموذجا متفردا ، فقد ألفت المكارم فارسها ، فتفردت به مثلما تفرد بها ، ونظرة الى هذا التكرار الجميل لمفردات المجد والكرم ، تدل على ما كانت تجسده من ايحاءات وظلال في خيال الشاعر ، فراح يبدع في وصفها والموائمة بين مواضعها باسلوب بلاغي ممتع (نحس من خلال هذا التكرار ان شيئا من توحيد الفكرة يريده الشاعر ، فضلا عن هذا الايقاع المنتظم الذي يتشكل) (٣١) ، وهكذا كان الجواهري يتعامل مع لغته ، فيطوع مفرداتها وتراكيبها لتوليد صوره الشعرية ، (الذي يقرأ الجواهري يؤمن ان شيئا من مهارة الشاعر يرجع الى اسلوبه ولغته ، فللجواهري اسلوب خاص ولغة خاصة ، ولعل ذلك راجع للطريقة التي اخذ بها نفسه في ايام صباه ، وكيف انه نجح في الافادة مما قرأ وحفظ مضيفا الى ذلك تجاربه في الحياة التي اهتدى اليها بسعة ادراكه وحدة ذكائه) (٣٢) .

ومن الالفاظ ما لا تحمل شعريتها في ذاتها وان اتسقت مع غيرها في التركيب اللغوي الشعري ، غير ان براعة الشاعر وقدرته على تطويع مفردات لغته ، تمكنه من التحكم بصنعته في خلق الصورة الشعرية ، فيمنح تلك الالفاظ ظلالا تجعلها تموج حيوية وحركة ، فالجواهري في قوله :

قم حي هذي المنشآت معاهدا الناهضات مع النجوم خوالدا
الشامخات انوفهن الى السما والمطلعات لفرقدين فراقدا
والفاتحات على الخلود نوافذا والمجريات مع الحياة روافدا
قم حي هذي الموحيات صوامتا واستنطق الحجر البليغ الجامدا (٣٣)

استعمل الفاظ (المنشآت ، معاهد ، أنوف ، نوافذ ، روافد) وهي الفاظ شائعة التداول ، لكن الشاعر جعل تلك الالفاظ في قوله تنساب انسيابا جميلا ، ففيها ما فيها من خفة جرس وسلاسة وقع ، بما يجعل اللسان يرددها بيسر وسهولة ، ونلاحظ كيف سعى الشاعر الى تكثيف صوره مشيدا بذلك الصرح العلمي الذي شمخ ، فعقد هذه المقابلات الجميلة ، فاذا بتلك المنشآت يشمخ بناؤها عاليا ، فتطال النجوم لتخلد معها وتكون فراقدا أخرى الى جانب الفرقدين ، كما انها منبع الحياة والخلود :

والفاتحات على الخلود نوافذا والمجريات مع الحياة روافدا

وعودة اخرى الى تمكن الشاعر من لغته فيما تضمنه قوله :

بماذا يخوفني الارذلون وممَّ تخاف صلال الفلا ؟!

ايسلب عنها نعيم الهجير ونفح الرمال ، وبذخ العرا ! (٣٤)

ففي هذين البيتين تجسيد لرحلة صحراوية ، اجتاز الشاعر – مكرها – مفازاتها ومجاهلها ، عارفا بما سيعرض له من اهوال ومخاطر ، فالموت يحف به من كل جانب ولكنه تعود على مثل هذه الصعوبات وآلف صنوف الشدائد والمحن ، فكيف يجرأ من يتهمه بالخوف ، وبماذا يخوف ومما يخاف ، لاحظ كيف اراد التدليل على صلابة ارادته وقوة شكيمته ، فوضع نفسه بازاء صل البيداء الذي ألف حر الهجير وسموم الرمال وقساوة العراء ، فما زادته تلك المصاعب الا قوة ومضاء ، ولا شك في اننا لا ننظر الى المفردة (بماذا) على انها مجرد اداة استفهام لا علاقة لها بلغة الشعر وروحه ، بل نجدها محملة بطاقة شعرية غير خافية ، فامتداداتها وعمق دلالاتها اوجزها الشاعر بهذا التساؤل الاستنكاري الذي استعمل له اداتي الاستفهام (ماذا) وهي لغير العاقل و (من) وهي للعاقل ، وفي ذلك دلالة اخرى مضافة اراد الجواهري من خلالها ان يؤكد بانه لا شئ يخيفه في هذه المخلوقات.

نعود ثانية لنتبين كيف البس الشاعر الفاظه معان لا تدل عليها في حقيقة وضعها فهل للهجير نعيم ؟ وللرمال نفح ؟ وللعراء بذخ ؟ ولهذا بدأ الشاعر بيته الثاني باستفهام استنكاري اتبعه بالفعل (يسلب) ثم اورد الالفاظ التي اشرنا اليها (نعيم ، نفح ، بذخ) لانها في حقيقتها لا وجود لها في مثل تلك الاجواء ، مع ملاحظة ان الشاعر لم يقل (لفح) وانما قال (نفح) لان اللفح يكون للشئ الحار و(النفح) للشئ البارد ، وهكذا تصرف الجواهري بلغته كي تؤدي الفاظها المعنى الذي توخاه .

واذا كان لي ان اختتم القول في هذا المبحث ، فليس لي الا ان اختتمه بالاشارة الى قول الجواهري :

ايهٍ (عميد الدار) شكوى صاحب طفحت لواعجه فناجى صاحبا
خبرت انك لست تبرح سائلا عني تناشد ذاهبا او آيبا
وتقول كيف يظل نجم ساطع ملء العيون عن المحافل غائبا
الان انبيك اليقين كما جلا وضح الصباح عن العيون غياهبا
فلقد سكت مخاطبا اذ لم اجد من يستحق صدى الشكاة مخاطبا
انبيك عن شر الطغام مفاجرا ومغاجرا ومساعيا ومكاسبا
انبيك عن شر الطغام نكاية بالمؤثرين ضميرهم والواجبا
لقد ابتلوا بي صاعقا متلهبا وقد ابتليت بهم جهاما كاذبا
حشدوا علي المغريات مسيلة صغرا لعاب الارذلين رغائبا
ظنا بان يدي تمد لتشتري سقط المتاع ، وان ابيع مواهبا
وبان يروح وراء ظهري موطن اسمنت نحرا عنده وترائبا
حتى اذا عجموا قناة مرة شوكاء ، تدمي من اتاها حاطبا
واستيأسوا منها ومن متخشب عنتا كصل الرمل ينفخ غاضبا
حر يحاسب نفسه ان ترعوي حتى يروح لمن سواه محاسبا
حتى اذا الجندي شد حزامه ورأى الفضيلة ان يظل محاربا
حشدوا عليه الجوع ينشب نابه في جلد ارقط لا يبالي ناشبا (٣٥)

هذه قطعة اخرى من بائية الجواهري (هاشم الوتري) التي سبق ان ذكرت عددا من ابياتها في موضع من المبحث الاول ، وها هي القصيدة تفرض حضورها مرة ثانية للحديث عن بعض ابياتها ، اذ انها جديرة بالوقوف عندها ، فالقصيدة – فضلا عن نسيج بنائها المتين ولغتها الرصينة – يفصح فيها الجواهري عن موقف وطني ، وجد ان الواجب والضمير يدفعانه الى الالتزام به والافصاح عنه ، مهما تطلب مثل هذا الالتزام والافصاح من تضحيات جسيمة ، كان الشاعر مستعدا لها ، اذ يقول (كنت موطنا نفسي حتى الموت) (٣٦) ولانه كان يضع في حساباته اسوأ الاحتمالات ، وما يمكن ان يتعرض له بسبب هذه القصيدة ، عرض مطبعته للبيع فالتقاه شخص لا يعرفه ، اتفق

معه على رهن المطبعة مقابل خمسمائة دينار ، وهذا ما اشعره براحة البال ، مطمئنا على مصير عائلته (٣٧) ، ولهذا قال (لقد انعشني هذا اكثر فاكثر وزاد في عنفي في القصيدة) .(٣٨)

ونترك الجواهري يصور لنا طبيعة الموقف وقت انشاده قصيدته ، فيقول : (كان المكان يغص بالحضور وقد احتشد الشباب فيه احتشادا ، غير ان احدا لم يستعد بيتا واحدا من فرط الرهبة ، ... اما الوتري فكان يتلفت حوله مستغربا او كالمستغرب .. خائفا او كالخائف ، متنصلا او كالمتنصل .. واما انا فقد مضيت في الالقاء حتى النهاية .. وبعد ان اكملت مزقت اوراقي وذريتها امام الجمهور ، ثم غادرت المكان سيرا على الاقدام ومضيت الى المطبعة)(٣٩) .

ولا نريد تتبع قصيدة الجواهري من اولها الى آخرها ، لان الحديث – حينئذ – سيطول معها ، فهي تجاوزت المئة والثلاثين بيتا ، انما سنقف عند بعض ابيات القطعة التي مر ذكرها ، وقبل ذلك ، لا بد من الاشارة الى ان الشاعر في موقفه الذي عبرت عنه قصيدته اعطى للشعر حضوره في الميدان ، مجسدا حقيقة الدور الذي ينبغي ان ينهض به ، بوصفه قيمة فنية عظيمة عظيمة الشأن ، ترى الحق حقا وتعلي من شأنه ، وترى الباطل باطلا وتحرض على محقه ، فوجد الجواهري نفسه بين خيارين لا ثالث لهما ، اما ان يكون جوهرة بلاده حقا فيربح نفسه وتاريخه ، حين يضع الوطن في الاحداق ، واما ان يشتري سقط المتاع ، فيخسر كل شئ ، فاختار اسمه ورسمه وصوته وفنه ، فصرخ بوجه الظلم والظالمين ، غير هياب ولا وجل ، مقتحما عليهم الابواب والنوافذ ، كاشفا خورهم وهوانهم ، لانه اعرف بهم ، فهم اعجز من ان يطاولوه :

لقد ابتلوا بي صاعقا متلهبا وقد ابتليت بهم جهاما كاذبا

يضعنا الشاعر بازاء صورتين متناقضتين ، فنلمس ما ينذر به هذا الصاعق المتلهب من ويل وثبور ، فلفظة (صاعقا) تتشظى دلالاتها وايحاءاتها في خيال الشاعر مستجمعة كل الوان الغضب والشدة والعنف ، فيستحيل الانفعال المشروع سيلا جارفا تتشابك معه زمجرة رعد وبرق ، فتنزوي عنه ، بل تذوب فيه سحابة كاذبة ،

فالصاعق المتلهب هو الجواهري ، والجهام الكاذب هم الظالمون الاراذل من الحكام الذين حاولوا اغراء الشاعر وكسب وده ، ليضمنوا اسكات صوته ، ومن اجل ذلك ، ماذا فعلوا ؟ يقول الجواهري :

حشدوا علي المغريات مسيلة صغرا لعاب الارذلين رغائبا
ظنا بان يدي تمد لتشتري سقط المتاع ، وان ابيع مواهبا
وبان يروح وراء ظهري موطن اسمنت نحرا عنده وترائبا

لقد احاطوه بحشد من المغريات التي يسيل لها اللعاب ، وهي مغريات لها اول وليس لها آخر ، يزحم بعضها بعضا ، تتتابع وتتلاحق بغير انتظام ، ولهذا عبر عنها الشاعر بقوله (حشدوا) فوجد فيه دلالة دقيقة على صورة تلك المغريات ، وهي سقط متاع ، اتستحق ان يبيع مواهبه ليظفر بها ؟ وليس ذلك حسب ، بل يتخلى عن وطن نشأ فيه وترعرع في ظل خيراته ، معبرا عن ذلك اصدق تعبير بقوله (اسمنت نحرا عنده وترائبا) ومن هنا عض الجواهري بنواجذه على اعز شيئين هما عنوان هويته : فنه ووطنه ، وبسبب اصراره على التمسك بهما بقوة وعدم التفريط باي منهما ، لم يترك لاولئك (الطغام) من خيار الا محاصرته وتضييق الخناق عليه علهم يفلحون في النيل منه ، وانى لهم ذلك وقد (عجموا قناة مرة شوكاء) لاحظ كيف تعاظم غضب الشاعر وتفجر انفعاله ، ليشتق من لفظة (الشوك) مفردة جديدة ، مولدا لها معنى ينطبق تمام الانطباق على هيأته في تلك اللحظة ، فهو لم يكن (قناة مرة) حسب ، انما تلك القناة المرة ، (شوكاء ، تدمي من اتاها حاطبا) فمن الذي يجرأ على التقرب منها ولمسها ، ولم يكتف الجواهري بتلك الصورة الموجبة بالوان الاذى ، بل الحق بها صورة اخرى لم تدع مجالا للشك في اليأس من اقناعه ، لانه (متخشب عنتا كصل الرمل ينفخ غاضبا) ولِمَ ينفخ صل الرمل ؟ وكيف هي صورته لحظة غضبه ؟ انه يكون بمثل تلك الهيأة حين تستفزه تحديات المتربصين به شرا ، فاذا بالجواهري يستعير لنفسه هذا الموقف ، ولما كان كذلك ، عاودوا ثانية لاحاطته بحشد ، ولكن أي حشد :

حشدوا علي الجوع ينشب نابه في جلد ارقط لا يبالي ناشبا

وصورة الحشد هذه على النقيض من صورة الحشد التي مر ذكرها ، فاذا كانت المغريات في كل ما يرغب الانسان ويشتهي قد حشدت في الصورة الاولى فان كل الوان الحرمان قد حشدت في الصورة الثانية ، واذا بالجوع يبدو بهيأة حيوان مفترس يبحث عن صيد ينشب فيه نابه ، ولكن أي صيد يظفر ، وليس امامه سوى (جلد ارقط لا يبالي ناشبا) هكذا قدم الجواهري نفسه من خلال هذه الابيات وسواها من قصيدته تلك ، انسانا ثائرا وشاعرا ملتزما ، وجد ان ضميره يلح عليه في ان يهدر صوته بالحق ويصرخ بالباطل واضعا روحه فوق كفه ، وكان – كما قال – قد وطنها على الموت (في مثل هذا العنف والحدة يندفع الجواهري يهاجم الحكام ويصورهم ويذيع هذا الشعر في المحافل العامة بين الناس ، فاذا بصورة المتنبي وتعاليه وكبريائه تعود فتتقمص شخصية الشاعر من جديد ، يعبر عنها هذه المرة تعبيرا ثريا ناضجا (٤٠) .

المبحث الثالث

صوره الشعرية

تتجلى عبقرية الشاعر واقتداره الفني وتفرد مهارته ، في الاسلوب الذي يبتدعه لنفسه ، والطريقة التي ينتهجها في رسم صوره الشعرية ، متمثلا في ذلك دور الفنان الذي ينعم التأمل في مسارات لوحته ، ويديم النظر في تشكيلاتها برؤية نقدية متبصرة ، هدفها الوصول الى الاثر الفني الافضل الذي يتجلى اثره في نفس المتلقي ، لان الشاعر حين الانتهاء من ابداع قصيدته ، يكون نفسه اول متلق لها ، فيكتشف من خلال اعادة قراءتها مدى قوة تأثيرها ، وعمق مدلولاتها وتألق صورها التي تبدو كأنها ممثل قدير ، يجيد تبادل ادواره برشاقة وحيوية ، مدخلا المتعة والسرور في نفوس ناظريه ، جاعلا اياهم امام خيار واحد ، هو الانفعال الصادق بما يرون ويسمعون ، وهكذا يبدو اثر القصيدة بكل ما يتجسد في بنائها من مؤثر اجاد الشاعر اختيار الموضع المناسب له ، مانحا اياه القدرة على التفاعل مع ما سواه ، ليظل وهج ذلك الاشعاع متوقدا الى نهاية المطاف الذي يحسن الشاعر التوقف عند آخر محطاته ، والشاعر الذي يسعى الى

التميز ممن سواه ، لا بد له من ان يشقى ويكابد ويجهد نفسه ، لينتزع ملامح شخصيته الفنية ، بما ينجح فيه من خلق روافد قصيدته التي تمنحه القدرة على التواصل فيما يبدعه من صور ، وما يولده من معان ، فيما يكاد ينضب رافد بين يديه الا تولد عنه رافد آخر اكثر عمقا وثراء ، وذلك كفيل بان يجعل الشاعر يتخير ما يشاء مؤثرا الاجود والاروع في نسيج قوله ، والان لندع خيال الجواهري وهو يؤلف صوره الشعرية ، مجسدا ذلك الاقتدار وتلك المهارة ببراعته المعهودة ، ولنبدأ معه وهو يخاطب نفسه ، قائلا :

اقول لنفسي اذا ضمها واترابها محفل يزدهى
تسامي فانك خير النفوس اذا قيس كل على ما انطوى
واحسن ما فيك ان الضمير يصيح من القلب اني هنا
وانت اذا زيف المعجبين تلآلآ للعين ثم انجلى
ولم تستطع همم المدعيـ ـن صبرا على جمرة المدعى
خلصت كما خلص ابن القيون ترعرع في النار ثم استوى
تسامي فان جناحيك لا يقران الا على مرتقى
كذلك كل ذوات الطماح والهمم ، مخلوقة للذرى
شهدت بانك مذخورة لا بعد ما في المدى من مدى
وانك سوف تدوي العصور بما تتركين بها من صدى (٤١)

هذه ابيات خص بها الشاعر نفسه ، اذ اختلى بها متأملا حقيقتها وما حولها ، وفي لحظة الخلوة مع النفس ، يتجسد صدق القول ، وما اجمل ان يكون الانسان صادقا مع نفسه ، بل ما اروع ان يكون الانسان عارفا قدر نفسه ، واثقا مما هي جديرة به من سمو وما تستحقه من منزلة ، ولهذا راح الجواهري يحث نفسه على ان تتسامى ، لانها (خير النفوس اذا قيس على كل ما انطوى) واحسن ما في نفسه انها لا تتصرف على وفق هواها ، بل تحتكم الى الضمير الذي اذا ما تحكم بسلوك الانسان ، كان ذلك كفيلا بنزاهته ونقائه ، وهكذا هي نفس الشاعر التي جبلت على مقارعة الخطوب ومواجهة الملمات خرجت من اتونها ، وهي اكثر اقتدارا واشد مراسا ومنعة ، فخاطبها الجواهري بقوله :

خلصت كما خلص ابن القيون ترعرع في النار ثم استوى

وهذا القول يتطلب ان نقف عنده قليلا كي نستجلي ابعاد الصورة التي رسمها الشاعر لنفسه ، فاذا به يراها وقد خلصت مما تشابك عليها من ملمات في صورة ذلك السيف الذي برع الحداد في صقله وتهذيبه ليكون سيفا لامعا ، لا يثلم ولا يخطئ هدفه ، وكيف لا يكون كذلك وقد (ترعرع في النار) والشاعر – هنا – يكون قد تشبع بالنار حتى اصبح جزءا منها ، والشاعر حين يمتلك خيالا وقادا يكون مقتدرا على ابتداع المعاني الطريفة وتشكيل الصور البليغة ، وهكذا هو الجواهري ولننتقل الى صورة اخرى تتجسد في قوله :

القاعدون اذا اشتدت مجلجلة وطاح ضحيان محروب ومكروب
والراكضون اذا انجابت عجاجتها كانهم في الميادين اليعاسيب
النافجون من الاحضان اخبثها وان غدتها وربتها الاطاييب
والعالفون حصيد الذل راكمه هم والجدود فموروث ومكسوب
علاهم – فعلوا بالجور غيرهم – سوط الولاة على الظهرين ملهوب (٤٢)

الشاعر في هذه الابيات قدم لنا صورة المنافقين ، فماذا البسهم ؟ وبماذا وسمهم ؟ حين تتدرج مع الشاعر في معرفة اوصافهم ، تتضح لنا حقيقتهم وتتكشف صورتهم ، فهم جبناء ، ولا نجد افضل مما نعتهم به الشاعر ليجسد جبنهم بقوله (القاعدون ...) ولكن هؤلاء القاعدين جبنا سرعان ما نجدهم في اول الصفوف ، حين ينقشع الغبار وتتجلى حقيقة الموقف ، وهنا لا يخفي الشاعر استهزاءه بهؤلاء وسخريته منهم ، الم يكن هم انفسهم (القاعدون اذا اشتكت مجلجلة) فاذا بهم (الراكضون اذا انجابت عجاجتها) ولا فرق عندهم بين قعودهم وركضهم الا بما وفر لهم ذلك القعود من الاحتفاظ بكامل قواهم كي ينطلقوا مسرعين بحثا عن مغنم لا يستحقونه ، ويستمر الشاعر في متابعة رصده لصورتهم القبيحة ، فاذا هم عالفون حصيد الذل ، وحال قراءتنا لفظة (العالفون) نستحضر صورة الدواب التي يقدم لها العلف لتأكله ، فاذا بالشاعر يستعيرها لهؤلاء ، ولو انه جعلهم يعلفون نوعا من الاكل لهان الامر ، ولكنه جعلهم (العالفون حصيد الذل)

ويبدو ان لديهم منه نصيبا وافرا ، فهو كم متراكم بما عندهم وبما ورثوه عن ابائهم واجدادهم ، ولانهم ارتضوا الذل لانفسهم استحقوا ان يسلط على ظهورهم سوط الولاة الذي سلطوه هم ظلما على غيرهم ، ويختتم الشاعر نعوته لهم بقوله :

منافقون يرون الناس انهم شم ، اباة ، اماجيد ، مصاحيب
وانهم قادة صيد ، وانهم غر المصابيح والدنيا غرابيب
والناس والله يدري انهم همل غفل ، سوام ، عضاريط ، مناخيب (٤٣)

وصورتهم في هذه الابيات لا تحتاج الى تعليق ، فبين ما يرونه لانفسهم وما هم عليه في الواقع يجسده تقابل هذه المفردات (شم ، اباة ، اماجيد ، مصاحيب ، غفل ، سوام ، عضاريط ، مناخيب) .

وفي القصيدة نفسها ابيات يستعرض فيها الجواهري جانبا من صور العداء والحسد التي لاحقه بها ، ممن اوغرت صدورهم غيضا وكمدا لما كان عليه من شهرة ومنزلة استحقها ، فلننظر فيما قاله في امثال هؤلاء :

مشت الي بعوضات تلدغني وهل يحس دبيب النمل يعسوب
تسعون كلبا عوى خلفي وفوقهم ضوء من القمر المنبوح مسكوب
ممن غذتهم قوافي التي رضعت دمي فعندهم من فيضه كوب
وقبل الف عوى الف فما انتقصت ابا محسد بالشتم الاعاريب (٤٤)

اراد الشاعر – هنا – التعبير عن عجز حساده في النيل من اقتداره ، فعدهم بعوضات لا يكترث للسع لدغاتها ، ايحس امير النحل بدبيب النمل ؟ ثم اولئك ليس اكثر من كونهم كلابا تعوي خلفه ، وتظل تلهث وتلهث حتى تخور قواها ، فتقفل راجعة منكسرة ذليلة ، وقبل الف عام عوى الف كلب خلف المتنبي ، فلم يزده ذلك الا تعاظما واقتدارا ، فخلدته روائع قصائده وعظيم فعاله .

وقد نجد الشاعر يستعير لبعض صوره الشعرية مفردات ، يتماثل تشكيلها مع طبيعة المضمون الذي تؤديه ، كما في قوله :

مشى وخط المشيب بمفرقيه وطار غراب سعد من يديه
وراحت من زهاها امس حبا تقول اليوم : واسفي عليه
تبدل غير رونقه ولاحت تضاريس السنين باخدعيه
رمادا خلته لولا بقايا توقد جمرتين بمقلتيه (٤٥)

هو حكم الزمن الذي لا مفر منه ، فلا دوام ولا ثبات للاشياء التي يتمنى المرء ان تظل كما هي ، وانى له ذلك ، وها هو الشاعر يتحسر ويتأسف على ضياع شبابه ، اذ غزا الشيب مفرقيه وتلاشت نضارته ، ورثت لحاله تلك من عاش واياها بالامس زهو الحب ، ونلمس في مفردات الجواهري آثار الاسى والندم ، فيبدو لنا من خلالها ، كأنه يتثاقل في مشيته تثاقله في ترديد الفاظه بين مشي وخط الشيب في رأسه ، وطيران غراب السعد من يديه ، ونراه كيف التقط لرحيل شبابه صورة الغراب الذي وجده غراب سعد – مع ما هو معروف عنه من قبح وشؤم – لانه استعار منه ملمحا من ملامح شبابه وقد تعاظم الم الجواهري واشتد حزنه فراح يجعل للزمن تضاريس باتت آثارها باخدعيه ، ولنا ان نتخيل دقة استعماله للمفردة (تضاريس) وما يمكن ان تومئ اليه من ظلال ومعان استقصى الشاعر وجوهها في تلك اللحظة ، فوجدها مناسبة لوضعه النفسي .

وحين يبدأ خيال الشاعر بالتقاط المشاهد التي تنظم صوره ، تتدخل براعته الفنية في تشكيل تلك الصور ومحاولة ترتيبها بتوليف دقيق ، ثم معرفة عميقة بالوظيفة الحركية التي يجسدها المشهد الوصفي الذي تؤديه ابيات القصيدة ، وهنا تتدخل – مرة اخرى – براعة الشاعر في التقاط تلك المشاهد والصور التي تبدو اكثر قدرة من غيرها على التعبير عما يجول في خاطره ، ويدور في مخيلته من افكار وقيم ومعان ، تفعل فعلها المؤثر في انفس متلقيه الذين تتفاوت اشكال افتتانهم بموضوعات القصيدة بحسب اذواقهم ومستويات ثقافتهم ووعيهم ، فالجواهري وهو يرى الطريق نحو ما يبتغي المناضلون غير معبدة ، فالمصاعب جمة والمخاطر متنوعة ، يضع امام مخاطبيه هذه الصورة محذرا ومنبها فيقول :

امامكم موعر ، ملغم بشتى المخاوف ، مستصعب

يسد مداخله ارقم وتحمي مسالكه اذؤب (٤٦)

ويتضح هذا التقابل الذي قصد اليه الشاعر بين صدر البيت الثاني وعجزه ، فهو لم يكتف بالمقابلة بين صورة الالفاظ (يسد ، تحمى ، مداخله ، مسالكه ، ارقم ، اذؤب) وهو ما عبر عنه القدامى بالترصيع (وكأن ذلك شبه بترصيع الجوهر في الحلي) (٤٧) ، فقد قابل الشاعر بين المعاني ايضا ، فمداخل الطريق يسدها ارقم ، ومسالكها تحميه اذؤب ، ونلحظ كيف اراد الجواهري ان يضع مخاطبيه امام جسامة المهمات التي تنتظرهم ، وطبيعة الاهوال التي تعترض سبيلهم نحو بلوغ اهدافهم المنشودة ، فجسد ذلك كله بصورة الارقم والاذؤب الذين تحتفظ لهما مخيلة الانسان بكل ما يثير الفزع والرعب والخوف ، وما يوحي بالغدر والهلاك .

والصورة التي نود اختتام القول بها في هذا المبحث هي صورة الشاعر المتنبي ، التي لم تفارق خيال الجواهري ، فكانت له ومعه كظله ، ولن نتحدث عن نسيج العلاقة التي اقامها الجواهري مع المتنبي ، ولكن نترك الجواهري نفسه يتحدث عن ابعاد علاقته بالمتنبي ، ليقول فيها ما يقول ، فماذا نجد ، لنستمع اليه ، وهو يقول :

امس استضافت عيوني في الكرى شبحا به تلاحم امس مشرق وغـد
ناشدتـه وعلـى اثوابـه علـق من الدماء ومن حباتهـا زرد
ووجهه كشعاع الفجر منطلـق وعينه كوميض الجمر تتقد
وفيه تأليفة مـن هيكل عجـب فيه الحمامة جنب النسر تتحد
أنا ابن كوفتك الحمراء لي طنـبُ بـها ، وان طاح من اركانه عمدُ
جوار كوخك لا ماء ولا شـجرُ ولصق روحك لا مال ، ولا صفدُ
ولا شكاة ايشكو السيف منجـردا ؟ لا يخلق السـيف الا وهو منجردُ
فكن ابا (الطيب) الجبار لي مددا ولي بما صفت من (جبارةٍ) مددُ
يا شاغل الدهـر اجيالا واحقبـة ومتعب الناس من ذموا ومن حمدوا
ويا معري اطباع وما خبـأت ويا محطم اصنام ومن عبدوا
اقسمت انك عمـلاق به غلـق لا الارض عن سره تبني ولا اللحد

ابا (محسد) دينا رحت تمخضها فما تلقف الا ما نقى الزبد
نحن الغريران في دنيا بها صبب في المعطيات بنا عن مثله صعد
رغادة وادقاع قسمة ضنك ضيزي لمن زرعوا فيها ومن حصدوا
حتى انبرينا فجئناها بثالثة ان الشقاء اذا استعلى هو الرغد (٤٨)

الجواهري يستضيف المتنبي في منامه ، فاي زائر هذا ؟ واي ضيافة تليق بمقدمه الكريم وهو (خير من تسعى به قدم) فلم يجد الجواهري غير ان يفترش له عينيه كي تتكحلا باشراقة رؤيته ، ففي الصدر شوق لا انطفاء لجمراته ، وفيه شكوى لا يدرك سرها ومعناها الا المتنبي ، وما بين الاثنين علاقة ليس لنا ان نحدد نوعها وطبيعتها ، فمهما اجتهدنا في ايضاح بعض معالمها ، يبقى فيها من المجهول ما لا يمكننا القاء الضوء عليه ، فالجواهري تربطه بالمتنبي علاقة الابداع والتألق والنبوغ ، وما بينهما من مآثر الاباء والكبرياء ، بل ما بين الاثنين من صلة الجوار وتقاسم الهم والشقاء ، فالتقى هذا بذاك ، عبر مسار شعري مترع ببراعة الاداء ومهارة الفن ، مع قدرة فائقة على التحكم بمفردات اللغة وتنوع استخدامها، باداء متقن واسلوب متين ، يفصح عن موهبة شعرية ناضجة، امتلك الجواهري من خلالها مقومات الإبداع والاجادة ، ليضع اسمه مع زمرة الشعراء الكبار، وفي مقدمتهم ابو الطيب المتنبي الذي كان الجواهري في تمثله لشخصه واستحضاره لروائعه يمني نفسه في ان يحظى – كصاحبه – بسيف دولة يلازمه ويراه جديرا بمدائحه،كي يتبادل معه الرقي الى سلم المجد ، فمثلما وجد المتنبي نفسه الطامحة نحو العلا والساعية الى المجد في شخص سيف الدولة كان الجواهري يتطلع الى من يجد فيه نفسه الطامحة نحو العلا والساعية الى المجد والمتشردة في دروبهما تلاحق نور الشمس، قاطعة الفيافي والمفازات بكل ما يضج في سوحها من قهر وخطوب وملمات غير هيابة ولا وجلة ، فالكل في هذه الحياة مصيره الهلاك شاء ام ابى ، تقدم ام احجم ، ولهذا كان الجواهري يريد من نفسه ان تبقى عزيزة ابية ، فيخاطبها قائلا :

حنانيك نفسي دونك الكون كله فرنّي له يسمع صدى وجوابُ
محلقة طيري وان هب عاصف واخلد ليل ، واستكن ضبابُ
وساحرة حتى تزيغ شواخص اليك ، وحتى تستشيط رقابُ
وعامرة ظلي ولو ان عالماً برمته عن جانبيك خرابُ
ولا تعرفي حدا فانت مفازة ستبقى عصورا تقتفي وتجابُ
وكوني على شتى طباعك حرة فانت الى شتى الدهور خطابُ
ولوحي خلال الحادثات مشعةً كما لاح ما بين الغيوم شهابُ (٤٩)

لقد كان الجواهري قارئا نهما لشعر المتنبي فحفظ كثيره ، ومنه ما كان واجدا فيه صدى قويا لنفسه المتعالية الواثقة ، الجامحة نحو المجد بطموح لا حد له، وذلك كله قد القى بظلاله عليه ، فاختزن منه ما اختزن من الصور والافكار والمعاني التي نجح في استحضارها في اللحظة المناسبة، فاجاد – مستعينا بها ببراعته في التعامل معها – نظم قصائد احكم بنائها بمهارة فائقة، متمثلا فيها روح المتنبي ومستحضرا جانبا من لمساته الابداعية والق عبقريته،على ان مثل هذا القول،لا يعني ان الجواهري اتكا على المتنبي وكان عائلا عليه، فهو نفسه قد اقر انه لم تنضج معالم شاعريته وينطلق خياله في ميدان الكلمة الفسيح ، الا بعد ان ادام النظر في دواوين الشعراء القدامى ، ومنهم المتنبي الذي كان الجواهري مطيلا التوقف عنده ، متاثرا بروعة فنه وبديع صنعه ، فكان يرى فيه مثاله الذي يطمح بلوغه ، ولهذا كانت صورته ماثلة امام عينيه ، وكانت روائعة شاخصة له تشع بالق ظلالها عليه ، فيلتقط منها ما يمنح شعره القا وتوهجا .

وهكذا نصل الى ختام وقفاتنا مع جوانب من ابداعات الجواهري ومهارة فنه ، بعد رحلة احسست فيها بمتعة حقيقية انستني المتاعب وانا اطوف مع الجواهري ، متنقلا بين روائعه ، اذ امكن الوقوف عند بعض لمساته الابداعية ومهارته الفنية وبراعته في تطويع مفردات لغته وتشكيل عناصر صوره ، بما لا يدع مجالا للشك من ان الجواهري شاعر امتلك ناصية القول وتمكن من ان يختط لنفسه نهجا جواهريا اهتدى اليه عبر مسيرة فنية شاقة كان خلالها يعيش مخاضا عسيرا ، تزدحم من حوله الملمات ، وتحتشد

المعاناة وهو بين هذه وتلك قد يشعر بالضعف ويتملكه الحزن ، ويثقل عليه الالم ، لكنه لم يستسلم ولم ييأس ، اذ يستحضر مضاء عزيمته وقوة ارادته وثباته ، فيلجا الى حيث عالمه الاثير ، محلقا بخياله الوقاد في فضاء شعره ، لا يزاحمه فيه احد فينطلق كالمارد مقتحما اسوار الصمت ، هادرا عذب القول ، مؤكدا حضوره ، فلا شئ يمنع انطلاقته ، وهو القائل :

سيمنع من طلاقته لساني متى منع الظهور الفرقدان

دعوه انه بالرغم منكم جواد سابق ملء العنان

امل ان اكون قد وفقت في الكشف عن بعض ملامح شاعرية الجواهري ، فيما توقفت عنده من شعر في هذا البحث المتواضع ومن الله التوفيق ، عليه التوكل واليه الانابة .

هوامش البحث :

١- ديوان الجواهري ٧١/١ .
٢- المصدر نفسه ٥١٣/١ .
٣- تطور الشعر العربي الحديث في العراق /٢٦٩ .
٤- ديوان الجواهري ٤٣٩/١ .
٥- لغة الشعر بين جبلين /١١٦ .
٦- ديوان الجواهري ٢٣٨/١ .
٧- المصدر نفسه ٢٣٨/١ .
٨- المصدر نفسه ٣١١/١ .
٩- المصدر نفسه ٤٠٠/١ .
١٠-المصدر نفسه ٤٠٢/١ .
١١-لغة الشعر العربي الحديث في العراق /٣١٥ .
١٢-ديوان الجواهري ٩٣/٥ .
١٣-المصدر نفسه ٢٣٢/٢ .
١٤-المصدر نفسه ١٠٩/١ .
١٥-المصدر نفسه ٤٤٤/١ .
١٦-المصدر نفسه ٥١٣/١ .

١٧-لغة الشعر بين جبلين /١١٥ .
١٨-ديوان الجواهري ٤٠١/٣ .
١٩-المصدر نفسه /١١٥ .
٢٠-ديوان الجواهري ١٥/٢ .
٢١-المصدر نفسه ٤٠١/٣ .
٢٢-تطور الشعر العربي الحديث في العراق /٣٩٢ .
٢٣-ديوان الجواهري ١٥/٢ .
٢٤-المصدر نفسه ٣٥/٤ .
٢٥-المصدر نفسه ٣٢١/٢ .
٢٦-ديوان الجواهري ١١٢/١ .
٢٧-المصدر نفسه ١٠٧/١ .
٢٨-المصدر نفسه ٢٥٣/٥ .
٢٩-تطور الشعر العربي الحديث في العراق /٢٨٨ .
٣٠-ديوان الجواهري ١٩٧/٣ .
٣١-تطور الشعر العربي الحديث في العراق /٣١١ .
٣٢-لغة الشعر بين جبلين /١١٧ .
٣٣- ديوان الجواهري ١٩٥/٣ .
٣٤- المصدر نفسه ٢٠٦/٣ .
٣٥- المصدر نفسه ٣٩٩/٣ .
٣٦- المصدر نفسه ٣٩١/٣ .
٣٧- ينظر ديوان الجواهري ٣٩٢/٣ .
٣٨- المصدر نفسه ٣٩٢/٣ .
٣٩- المصدر نفسه ٣٩٣/٣ .
٤٠- تطور الشعر العربي الحديث في العراق /٢٩٥ .
٤١- ديوان الجواهري ٢٠٦/٣ .
٤٢- المصدر نفسه ١٦٠/٤ .

٤٣- المصدر نفسه ٤/١٦٠ .
٤٤- المصدر نفسه ٤/١٦١ .
٤٥- المصدر نفسه ٤/٢٧٧ .
٤٦- المصدر نفسه ٣/١٦٩ .
٤٧- سر الفصاحة /١٩٠ .
٤٨- ديوان الجواهري ٥/٣٥٣-٣٥٧ .
٤٩- المصدر نفسه ٤/١٨١ .

مصادر البحث :

١. تطور الشعر العربي الحديث في العراق ، اتجاهات الرؤيا وجماليات النسيج ، الدكتور علي عباس علوان ، منشورات وزارة الاعلام ١٩٧٥ .
٢. ديوان الجواهري : الجزء الاول والثاني ، مطبعة الاديب البغدادية ١٩٧٣ ، الجزء الثالث والرابع ، مطبعة الاديب البغدادية ١٩٧٤ ، الجزء الخامس ، مطبعة الاديب البغدادية ١٩٧٥ .
٣. سر الفصاحة ، ابن سنان الخفاجي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٢ .
٤. شرح ديوان المتنبي ، عبد الرحمن البرقوقي ، دار الكتاب العربي – بيروت .
٥. لغة الشعر بين جبلين ، الدكتور ابراهيم السامرائي – دار الثقافة ، بيروت .